صحائف مطوية :

من أخلاق البحتري

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ٢ —

ذكرتُ في مقالي السابق[1] أن أبا عبادة البحتري كان ذا حظوة سعيدة لدى الخلفاء، فقد أغدقوا عليه من الهبات الجزيلة ما اشترى به ضياعاً واسعةً في ضواحي بغداد، وأخرى في منبج بالشام، ولكنه على رغم ثروته الطائلة كان يُضيّق على نفسه فلا يلبس سوى الخز الرخيص ولا يأكل غير ما يقوم بحاجته الضرورية، وطبيعيٌّ أن يعامل أهله بهذه الكزازة الشحيحة، قال الحكم بن يحيى : « كان للبحتري أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً، فإذا بلغ منهما الألم مبلغه أتياه يبكيان فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مُضيِّقاً مُقتِّراً ويقول: كُلا، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما[2] »، وكان يأخذ أضيافه بنوع من القسوة لا ينبغي أن يَصْدر من شاعر مرهف الإحساس رقيق الشعور، قال أبو مسلم محمد بن الأصفهاني الكاتب « دخلت على البحتري يوماً فحبسني عنده ودعا بطعام له فامتنعتُ من أكله وعنده شيخ شامي لا أعرفه فدعاه فتقدم وأكل معه أكلا عنيفاً فغاظه ذلك، والتفت إليَّ قائلا : أتعرف هذا الشيخ ؟ فقلت : لا، فقال : هذا رجل من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة ... حمر اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أصبح جمعهم بعمان

قال : فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك[1] » .

ولقد كان غرام الوليد بالمال خيراً وبركة على شعره، إذ فتح له أبواباً من القول ضاعفت إنتاجه، فقد كان لا يرى عند خليفة أو رئيس سيفاً أو قرساً أو خاتماً أو قلماً إلا وصفه وصفاً بارعاً ثم استهداه منه ؛ فإذا تمّ له ما أراد أخذه فباعه وأضاف ثمنه إلى خزينته، والواقع أن هذا استجداء غير مشرّف، لأن الهدية لا تباع بحال من الأحوال !!

وقد نشأ البحتري في عصر تفاخر فيه الترفون باقتناء الجواري والغلمان، باذلين في ذلك أنفس ما يملكون من ذخر وعتاد، فكان الوليد لا يفتأ يستهدي مَن يروقه من المُرْد الحسان في أسلوب جميل يجعل سامعه يمنح الهديّة في سرعة واغتباط، وهل نجد أرق من قوله في استهداء غلام يدعى ميخائيل :

فإن تهد ميخائيل تبعث بتحفةٍ ... تقفّي لها العتبي ويغتفر الوزرُ
غرير تراءاه العيون كأنما ... أضاء لها في عُقب داجيةٍ فجرُ
ولو يجتلي في بضع عشرة ليلة ... من الشهر ماشك امرؤ أنه البدر
إذا انصرفتْ يوماً بعطفيه لفتةٌ ... أواعترضتْ من لحظه نظرة شزرُ
رأيت هوى قلب بطيئاً نزوعه ... وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر
تجاوزْ لنا فيه فإنك واجد ... به ثمناً يُغليه في مدحك الشعر
وألطف منه في الفؤاد محلّة ... ثناء تبقّيه القصائد أو شكر

وإذا كان البحتري قد هام بميخائيل لأنه وضيء الوجه حسن الصورة، قليت شعري بِمَ نعلل هيامه بنسيم ؟ وقد كان روميًّا دميم الصورة كريه الرائحة ! أَلِأَنَّهُ وجد هذه الصفات تجعل صاحبه يفرّط فيه بسهولة، فكان يستهديه ويبيعه، ثم يستهديه ويبيعه، فهو إذن شرك « مُحكم » يصيد به النقود،

وكانت تنتهي بسطرين في قافية واحدة يكونان نغمتها الأخيرة .

وذاع هذا الوضع الجديد، وسميت مقطوعاته المقطوعات الانجليزية أو المقطوعات الشكسبيرية، فقد نسبت إلى شكسبير ولو لم يك مبتكرها لأنه خير من أجاد في بناء هذه المقطوعات ولأنه من أكثر الشعراء إنتاجاً فيه ؛ ولقد كثر نظم المقطوعات كثرة ملحوظة في العصر الاليزابيثي وبرع فيه غير سبنسر وشكسبير نحو اثني عشر شاعراً، هذا فضلا عن عدد كبير لم يكن لهم مثل ما لهؤلاء من الإجادة وحسن السبك .

(يتبع)

الخفيف

(١) المنشور بالعدد (٦٩٠) .
(٢) الأغاني

(١) مقدمة الديوان .

وملهيم يقدح شاعريته ، فيصفه بما ليس فيه ، ويبالغ فى التشوق إلى لقائه مبالغة تستهوى الأفئدة كأن يقول :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد
أظن نسيما قارف الهجر من بعدى

خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه فيا عجباً للدهر فقداً على فقد
خليلىّ هل من نظرة توصلانها إلى وجنات ينتسبن إلى الورد
وقدٍّ يكاد القلب ينقـــدّ دونه
إذا اهتزّ فى قربٍ من العين أو بُعد
فلو تمكن الشكوى لخبّرك البكا
حقيقة ما عندى وإن جلّ ما عندى
قصبتك ممزوجاً بنفسى ولا أرى
لهم زاجراً ينهى ولا حاكما يعدى
أبا الفضل فى تسع وتسعين نعجة غنىً لك عن ظبى بساحتنا فرد

ومهما يكن من شىء فلقد مات نسيم فى ميعة صباه ، وارتاح الناس منه ومن عاشقه المشوق !

على أن البحترى كان يغيّر فى سبيل المال مذهبه واعتقاده فهو لا يثبت على قول واحد ، فإذا مدح معتزليًا كان معه ، أو سُنّيًا جاراه فى رأيه ، قال إبراهيم بن عبد الله الكبجى : قلت للبحترى ويحك ! إنك فى قصيدتك « أفاق صب من هوى فأفيقا » تقول :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرّفون كلامه المخلوقا

فهل صرت معتزليا قديمًا ؟ فقال : كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ! فقلت له : هذا دين سوء يدور مع الدول[1] » .

وإذن فالوليد لا يهتم بغير المال مهما غيّر رأيه واستجدى أصحابه ، وعنّف أضيافه ، وقتّر على نفسه وأهله كما تقدم فى صدر هذا المقال ، وذلك كثير ! !

* * *

بقى أن نتحدّث عن علاقة الوليد بزملائه الشعراء ، وهى فى جلّها غير مرضية ، فقد نشأ فى عهد نبغ فيه المُسلَمون من أبطال الشعر وقادته ؛ فكانوا يترا كضون فى ميدان فسيح ، فمَنْ حاز قصب السبق كانت له الشهرة المستفيضة ، والصيت الذائع ، وهذا تنافس شاق ترك فى نفس الوليد أثره الواضح ، فأبو تمام مثلا كان لا يستحق منه غير المدح الجزيل ، فقد أخذ بيديه فى بادئ أمره ، وقرّظه للعامة والخاصة ، وواصل تعريفه بالناس ولولاه ما أكل الخبز — كما يعترف بذلك البحترى — ولكنه لم يرع له هذا الجميل ، فهاجمه بعد موته ، وقال لولده أبى الغوث « إنه ما مات حتى أصفى من الشعر ، وقد سألت ابن الأعرابى عنه فقال : إن كان شعره شعراً فجميع ما قالته العرب باطل » بعد أن كان يقول فى حياته « إن نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه

ونود هنا أن نلفت الأنظار إلى قصة رووها كتب الأدب عن مبدأ تعرفه بأبى تمام ، وخلاصتها أن البحترى قد مدح أبا سعيد محمد بن يوسف بقصيدة :

أفاق صب من هوى فأفيقا ؟ أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

وكان أبو تمام حاضراً فنسبها إلى نفسه ، وصدّق جميع من فى المجلس ، فجعل البحترى يقسم بالله أنها له ، إلى أن استحيا أبو تمام ، فقال : الشعر لك يا بنى ولكنى ظننت أنك تهاونت مرضى فأقدمت على الإنشاد بحضرتى تريد بذلك مضاهاتى ، ... ونحن نقول إنها قصة مكذوبة نجل أبا تمام أن يصدر عنه ما ذُكر بها ، سواء رواها البحترى أم سواه ، لأن حبيباً كان ذا مذهب مشهور فى القول حتى إنك لتعرف قصيدته من أول بيت تسمعه ؛ فلو أنه ادّعى ذلك ما صدّقه أحد فى دعواه ، فلوّها عن بيت واحد تشمّ منه رائحته ، ولا سيما وجميع من فى المجلس يعرفون جيداً من هو أبو تمام ! وإلى أى حد ينزع .

أما ابن الرومى فقد جرّ على البحترى من البلاء ما أقلق باله وأزعج خاطره ، ذلك لأنه كان مولعاً بهجاء من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، فخاف الوليد على نفسه منه ، وطلب من سعيد بن الحسن الناجم أن يجمع بينهما فى مجلس ، وما إن تم ذلك حتى نشأت بينهما صداقة وليدة ، ولكن البحترى عاد فهجّن شعر صاحبه على ملأ من الناس ، وما إن شاع فى ذلك

(١) الوشح .

حتى انفجر ابن الرومى كالبركان الهائج يقذف الحمم على رأس الوليد . فهجاه مرات عديدة ، ولم ينس أن يتعرض إلى شعره فيُبيّن رأيه فيه بوضوح حين يقول :

قُبحاً لأشياء يأتى البحترى بها
من شعره الغث بعد الكدّ والتعب

عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب
وقد يجىء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
يعيب شعرى وما زالت بصيرته ... عمياء عن كل نور ساطع اللهب
الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره ... للبحترى بلا عقل ولا أدب !

إلى آخر ما قال .

هذا وقد هاجم على بن الجهم بدون ذنب جناه . فقد ورد على المتوكل على الله من البادية فأعجب الخليفة بخشونته وبسط له جناح عطفه ، وما زال به حتى دمث طبعه ، ورقت معانيه فأتى فى شعره بالرقص المطرب ، ولكن الوليد لم يطق ذلك من المتوكل ، فانبرى يهجو ابن الجهم هجاء مُرًّا ، وكان على قصير الباع فى السباب فلم يستطع الصمود أمام غريمه ، فتزيد عليه البحترى موجّهاً جُلّ هجوه إلى ما تحت ثيابه ! وكان الأولى بالوليد أن يترفع عن هذه الناحية المقيتة ، ولكن هذا ما كان ! على أن للبحترى فيه هجاء قد خلا من الفحش الصارخ . فكان جيد المعنى ، رائع السبك ، يدل على تفكير قوى وشاعرية ثرّة ، كأن يقول :

يا قذىً فى العيون يا غُلّة بـ ... ـين التراقى ياحرارة فى الفؤاد[1]
يا طلوع العذول غب صفاء ... يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركوداً فى يوم غيم وصَيْف ... يا وجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنّا فإنما أنت فينا ... واو عمرو أو كالحديث المُعاد
امض فى غير صحبة الله ما عشـ ... ـت مُلقى فى كل فجّ ووادى
يتخطى بك المهامه والبيد ... دليلٌ أعمى كثير الرقاد
خلفك الباتر المصمّم بالسـ ... ـيف ورجلاك فوق شوك القَتاد

كما أن من الغريب أن الدور الذى مثّله البحترى مع أبى تمام قد مثّله مع دعبل الخزاعى ، فكان فى حياته يرفع شعره إلى درجة عالية ، وما سمع بموته حتى بدّل رأيه فيه ، فقال لمن سأله عنه « إنه يدخل يده فى الجراب ولا يقول[1] شيئاً » ولعله كان يخاف من لسانه السليط !

ومهما يكن من شىء فإن حبيباً ودعبلاً أقربُ إلى نفس البحترى من ابن الرومى وابن الجهم ، وهذا يرجع إلى تقدمهما فى السنّ من جهة ، وعطفهما عليه من جهة أخرى ، فليت الوليد قد حبس لسانه عنهما حتى نذكره مع الذين يحفظون الجميل !

***

وبعد فأخشى أن أكون قد أغضبت عُشّاق البحترى بهذا الإلمام السريع . فأنا أعترف كما يعترفون ببراعته الفائقة ، وخياله الرائع ، وديباجته المشرقة ، ولكنى أعترف أيضاً بسلاطة لسانه ، وقلة وفائه ، وشح نفسه .

« ومن ذا الذى يُعطى الكمال فيكمل ! » .

(الفكر الجديد)

محمد رجب البيومى

(١) الوشم أيضاً .

(١) كذا فى الديوان ولعلها (ياجمرة فى الفؤاد) كيلا ينكسر البيت .

الأستاذ ساطع الحصرى .

يقـــدم :

إلى المعلمين والمربين والوالدين والمفكرين

١ — آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية

٢ — آراء وأحاديث فى التربية والتعليم

وهما خلاصة مطالعات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطق ، وأسلوب سهل ، وصورة مشوقة ....

يطلبان من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة

٢٠ قرشاً للأول و ٣٠ قرشاً للثانى

عدا أجرة البريد